المسار السُّوسيولساني وبُنى التّأسيس من "أنطوان مييه" إلى "وليام لابوف"

أ.د جيلالي طـــــــاهر

أستاذ دكتور في اللّسانيات

جامعة سعيدة الدكتور مولاي الطّاهر

Mazinia0@gmail.com

تاريخ	تاريخ	تاريخ
الإرسال.../..../....	القبول.../..../....	النّشر.../..../....

الملخص: يتتبع المقال أصول علم اللغة الاجتماعي الذي يعود إلى "أنطوان ميّيه"" Antoine Millet" ، الذي كان مهتمًا بالكلام بعد أن أهمله "دي سوسور"" De Saussure" . كما يصور تطور هذا العلم مع الباحثين الذين ساهموا في تكوين صورته الحالية ، مشيرًا إلى الاختلاف المنهجي بين اللغويات الداخلية والخارجية ، وكذلك الاختلاف المصطلحي بين اللسان والكلام. بعد تحديد الضيق الذي أصاب موضوع علم اللغة ، يعرض المقال الانفراج الذي يقدمه علم اللغة الاجتماعي من خلال تعريف موضوعه ، ومعالجة الجوانب الشكلية والاجتماعية للّسان وفق منهجية اجتماعية تعنى بمختلف القضايا التي تندرج في إطاره.

Abstract: The article traces the origins of sociolinguistics that goes back to “Antoine Millet”, who was interested in speech after “De Saussure” neglected it. It also depicts the development of this science with researchers who contributed to the formation of its current image, pointing to the systematic difference between internal and external linguistics, as well as the terminological difference between tongue and speech. After determining the distress that afflicted the subject of linguistics, The article presents the detente offered by sociolinguistics by defining its subject, and addressing the formal and social aspects of the tongue according to a social methodology that is concerned with the various issues that fall under its banner.

الكلمات المفتاحية: سوسيولسانيات – لسانيات داخلية – لسانيات خارجية – لسان – كلام

تمهـــــــــــــيد: السّياق الابستمولوجي لميلاد السُّوسيولسانيات:

انبثقت السُّوسيولسانيات(la sociolinguistique) من الانتقادات الّتي وُجّهت للّسانيات البنيوية الّتي انحصرت في تأويلات كتاب "دُروس في اللّسانيات العامّة" لـــ "فرديناند دي سوسير" (Ferdinand de Saussure)، (1857–1913) [1] متّخذة صبغة مذهبية.[2] ويُمكننا التّأريخ لميلاد السُّوسيولسانيات منذ بداية السّتّينيات، وهو التّاريخ الّذي يتواءم مع ميلاد البراغماتية (le pragmatisme en linguistique). لقد حقّقت اللّسانيات استقلالها مع "دي سوسير" بوصفها علما قائما برأسه.ومع ذلك فقد كان هذا الاستقلال على حساب فُسحة الدّراسات اللُّغوية، فقد ضاقت حُدودُها لتقتصر على كونها "نظاما من العلامات"، فتخلّت بذلك عن دراسة "الكلام" الّذي تُرك إلى عُلماء النّفس والفلاسفة وعُلماء الاجتماع، واستبعدت اللّسانيات المواقف الحقيقية للتّبادُلات اللّفظية من دائرة اهتماماتها قبل ظُهور الأعمال الأولى للسانيات الكلام (la linguistique de la parole).

إنّ الأولوية الّتي مُنحت للّسان(la langue) عن الكلام « la parole » (أو للقُدرة (la compétence)على الأداء (la performance)عند بعض الباحثين الّذين يعتبرون القدرة والأداء مرادفين للّسان والكلام) بلغت درجة خلق شخصية غريبة وغير موجودة تمثّلت في المُتكلّم المُستمع المثالي. يُفضي التّبايُن (le contraste)الّذي وضعه "دي سوسير" بين اللّسان والكلام إلى أبعد من حُدود النّظام(le système)، واللّسان هو الوحيد الجدير باهتمام الباحث اللّغوي ، وهو الوحيد الّذي يُمكن وصفُه. إنّ مُحيط المُتكلّم وتعديله المُتكرّر لاستعمالاته اللُّغوية شيء موجود بالفعل ، ولكنّه يبقى خارج دائرة الاهتمام، فاللّسانيات بمفهومها العلمي تقوم على التّجريد للواقع اللُّغوي غير المُتجانس[3].

إن الطّبيعة الاختزالية للبنيوية (le structuralisme)غير المُطابقة للواقع اللُّغوي، لكونها تعتبر اللّسان نظاما مُتجانسا جعل السُّوسيولسانيات تدعو إلى إلقاء نظرة مُغايرة على اللّسان بوصفها بنية مُتنوّعة قائمة على الاختلاف الّذي هو بنية أساسية في الكلام.[4]

I – بين اللّسانيات البنيوية والسوسيولسانيات:

1- اللّسانيات الدّاخلية واللّسانيات الخارجية: إن اللّسانيات الدّاخلية (la linguistique interne) عبارة عن مُقاربة مُرتبطة بالنّحو البنيوي التّقليدي تدرس السُّلوك اللُّغوي (le comportement linguistique) لذاته ولأجل ذاته مُستقلا عن أي سلوك فعلي من نوع آخر. أمّا اللّسانيات الخارجية (la linguistique externe) فترتبط بالسوسيولسانيات الّتي تدرس السُّلوك اللُّغوي بوصفه جُزءا من إطار اجتماعي ونفسي. فإذا تبنّينا وجهة النّظر الدّاخلية فإنّنا نُوافق على ما يُقال في لسان ما و ما لا يُقال فيه، ونُحاول وصف الكيفية الّتي يتم بها الكلام الصّحيح، ويتم بذلك إعطاء صُورة واضحة عن كيفية عمل النّظام. ولتوضيح ذلك نعرض المثال التّالي:

- قرّر علي أن يحصل على علامة عالية في اللّغة الأجنبية.
- علي قرّر في اللُّغة الأجنبية أن يحصُل على علامة عالية.
- قرّر في اللُّغة الأجنبية علامة عالية أن يحصُل عليها.

يُعدُّ المثال الأوّل صحيحا مُقارنة بالثّاني والثّالث. إذا تبنّينا وجهة النّظر الخارجية ، فإنّنا سنربط العبارات بمواقف تواصُلية خاصّة. فيتم الحُكم على العبارتين (الثّانية والثّالثة) موافقتان لموقفين مُعيّنين، كأن يكون المُتكلّم لا يملك الكفاءة اللُّغوية الكافية لكونه أجنبيا، أو يكون في موقف تواصُلي عفوي وجها لوجه مع أحدهم.

لسنيات المكتب مُقارنة بلسانيات الميدان: نقصد بلسانيات المكتب (la linguistique du bureau) المُقاربة البنيوية التّقليدية الّتي تدرس الكفاءة اللُّغوية، وهي تعمل على عبارات مثالية عُموما منقولة من مُدوّنات (corpus) أدبية أو موضوعة أحيانا من قبل الباحث نفسه. أمّا لسانيات الميدان (la linguistique du champs) وهي السُّوسيولسانيات فتعمل على مُدوّنة معرّفة على أنّها مجموعة من الأحداث الّتي جُمعت واختيرت على أساس تحقيقات قائمة على قواعد خاضعة للتّجريب، يتم العمل بها وفق تقنيات المُلاحظة المُباشرة و الاستبيان والمُقابلة.

موضوع الدّراسة السُّوسيولسانية: تتموقع السُّوسيولسانيات بين اللّسان و علم الاجتماع، وتستلهم موضُوعها من دراسة العلاقات بين اللُّغة والمُجتمع، فتهتم بكل رافد اجتماعي في اللّغة وكل ما يُنظّم فيها من الوجهة الاجتماعية. من بين مجالات اهتمام السُّوسيولسانيات: وُجود الكلمات الإنجليزية (الأجنبية) في الفرنسية و لُغة الشّباب و الطّرائق الّتي يسمّي بها النّاسُ بعضُهم بعضا، والكيفية الّتي ينهون بها أحاديثهم ويقطعون الحوار، و كيف يجري الكلام، وطرائق التّهجية والنُّطق (اللّكنات)، والفُروق بين اللّغة المكتوبة واللُّغة المنطوقة، والأخطاء الّتي نقوم بها أثناء أحاديثنا.

تعريف السُّوسيولسانيات: تدرس السُّوسيولسانيات الوظائف اللُّغوية واستعمالاتها وإتقان اللُّغة و الاحتكاك اللُّغوي(le contact des langues) ، وأحكام الجماعات اللُّغوية (les jugements des communautés linguistiques) على اللُّغة والتّخطيط والتّوحيد اللُّغويين، وتأخذ على عاتقها وصف التّنوُّعات اللُّغوية المُختلفة الموجودة في الوقت نفسه (المُتعايشة) في صُلب الجماعة اللُّغوية وذلك بربطها بالبُنى الاجتماعية. إنّها تدرس اللُّغة بوصفها نشاطا محددا اجتماعيا والّذي تتم دراستُه في الميدان. وهذا يعني أن دور الباحث في السُّوسيولسانيات هو التّحقيق بالدّرجة الأولى في وسط مُستعملي اللُّغة: يسألُهم ويستمع إليهم ويُلاحظ الاستخدام اللُّغوي بوصفه أمرا مركزيا. وعلى الرغم من ذلك لا يبدو هذا العمل كافيا، لأنّه – كما يبدو– لا يتجاوز كونُه قضية وصف، فلكي يكون العمل كاملا، لابدّ من إضافة مرحلة تأويل المُعطيات والمُلاحظات الّتي جُمعت إلى مرحلة الوصف الّذي لا يُمكن الاستغناء عنه. تدرس السُّوسيولسانيات اللُّغة في السّياق (le contexte)، ونعني بالسّياق الموقف التّواصُلي الفوري، فالمُتكلّم يستعمل هذه الصّيغة أو تلك اعتمادا على السّامع وعلى ردود أفعاله فقط ليجعله يفهم نواياه، كما تدرس المعارف المُشتركة والمُعتقدات والمقاصد والافتراضات والاستدلالات والأفعال غير الكلامية ذات الدّلالة الّتي تُصاحب الخطاب، والعلاقات الموجُودة بين المتكلّم والسّامع، وكل ذلك يُؤثّر على اختيار الوسائل اللّسانية المُستعملة من قبل المُتكلّم.ولذلك فهي تتقاطع مع الاثنولسانيات(ethnolinguistique) وعلم الاجتماع واللُّغة والجغرافيا اللّغوية وعلم اللّهجات(la dialectologie).[5]

منهجية السُّوسيولسانيات: لم تُطوّر السُّوسيولسانيات منهجية خاصّة، فهي تستخدم مناهج علم الاجتماع ، كالمُلاحظة المُباشرة والاستبيان والمُقابلة، ولكي يتم إجراء مسح ميداني سوسيو لساني، يجب على المُحقّق ما يلي:

- أن يتمتّع بثقافة لسانية صلبة.
- أن يكون مُدرّبا على مناهج إجراء التّحقيقات.
- أن يكون ذا معرفة واسعة بالنّظام الكلامي المُراد دراستُه. وأن يكون قادرا على استخدامه بشكل طبيعي.
- أن يقتصر عمله على المنطقة الّتي يُجيد لُغتها.
- أن يكون مقبولا من قبل الجماعة اللُّغوية.

•أن يختار الشّواهد الّتي تُمثّل تلك اللُّغة فعلا، والّتي وُلدت في تلك المنطقة، وتتكلّم تلك اللُّغة دون عُيوب في النُّطق، مع مُرونة الذّهن للتّكيُّف مع احتياجات التّحقيق وعدم الانقطاع عن تلك الفئة لمُدّة طويلة.

مجالات السُّوسيولسانيات: يُذكر "جون بابتيست مارسليسي" Jean-Baptiste) Marcellesi) في كتاباته السّابقة لـــــــــ"هنري بوير" (Henri Boyer) بقول "مايكل هاليداي" (Michael Halliday) [6]حين وضع خمسة عشر قطاعا في السُّوسيولسانيات، واستطاع تعريفها في المُؤتمر الحادي عشر للّسانيين سنة 1972، وهي:

1- الماكروسوسيولوجيا الخاص باللّغة والدّيمغرافيا اللُّغوية.
2- الازدواجية والتّعدُّدية اللُّغوية، والتّعدُّد اللّهجي.
3- التّخطيط والتّطوُّر والتّوحيد اللُّغوي.
4- ظواهر الهُجنة اللُّغوية.
5- علم اللّهجات الاجتماعي ووصف التّنوُّعات غير المُوحّدة.
6- السُّوسيولسانيات والتّربية.
7- إثنوغرافيا الكلام.

8- اللُّغات الخاصّة والسّجلاّت، والانتقال من رمز إلى آخر.

9- العوامل الاجتماعية للتغيُّرات الفونولوجية والنّحوية.

10- اجتماعية اللُّغة ونقل الثّقافة.

11- المُقاربات السُّوسيولسانية والتطوُّر اللُّغوي للطّفل.

12- النّظريات الوظيفية للنّظام اللُّغوي.

13- النّسبية اللّسانية.

14- اللّسانيات الإثنو منهجية.

15- نظرية النّص. [7]

II - الخاصية الشّكلية والخاصية الاجتماعية للّسان: أكّد اللُّغوي الفرنسي "أُنطوان ميّيه" « Antoine Meillet »على الطّابع الاجتماعي للّسان في العديد من النُّصوص، بل ذهب إلى تعريف اللّسان على أنّه حقيقة اجتماعية. وأعطى لهذا الطّابع الاجتماعي للّسان مُحتوى مُحدّد للغاية. وقد اقترح تعريفا لهذه الحقيقة الاجتماعية في مقالته: " كيف تغيّر الكلمات المعاني"[8]، مُؤكّدا على مُوافقته لعالم الاجتماع "إميل دوركهايم" بشكل واضح في كون الألسن المُختلفة ميّالة إلى التّطابق مع المجموعات الاجتماعية الّتي تتكلّمُها والّتي نُسمّيها أُمما. إن غياب الوحدة اللُّغوية هي سمة الدّولة الحديثة مثل ما هو موجود في بلجيكا أو كما تم في النّمسا بشكل اصطناعي. فاللُّغة إذن حدث اجتماعي في الأساس، وهو بذلك يدخُل بشكل دقيق في التّعريف الّذي اقترحه "دوركهايم" الّذي مفادُه: "أن وُجُود اللّسان مستقل عن وُجود أي فرد يتكلّمُه و على الرُّغم من كونه لا تتحقّق خارج مجموع أولئك الأفراد، إلاّ أنّه في عُمومه خارج عن الفرد. إن خواص الخروج عن الفرد ومُمارسة القهر عليه الّتي يُعرّف "دوركهايم" الحدث الاجتماعي بواسطتها بادية في اللّسان بداهة.

غالبا ما يُقدّم "أُنطوان ميّيه" باعتباره تلميذا لـــــــــــــ"دي سوسير" ، والواقع أنه بعد صُدور "دروس في اللّسانيات العامّة" أخذ في الابتعاد عنه، ففي تقريره عن "الدُّروس" كتب قائلا: "عند فصل التّغيُّر اللّساني عن الشُّروط الخارجية الّتي ترتبط به يكون "دي سوسير" قد فصله عن الواقع، وقلّصه إلى تجريد هو بالضّرورة غير قابل للتّفسير."

لقد ناقض "أنطوان ميبه" ثُنائية واحدة على الأقل من ثُنائيات "دي سوسير"، نقصد تلك الّتي تفرّق بين التّزامُني (le synchronique)والتّعاقُبي(le diachronique) ، وكذا الجُملة الأخيرة من الدُّروس: (إنّ هدف اللّسانيات المُنفرد والحقيقي، إنّما هو اللّسان منظورا إليه في ذاته ولذاته.)[9] وحتّى وإن لم يقُل "دي سوسير" ذلك، لأن هذه الجُملة قد تكون عائدة إلى النّاشر، إلاّ أنّها تُلخّصُ "الدُّروس" بشكل مثالي.

ويُعدُّ ذلك تناقُضا في الواقع ، لأن تأكيد الطّبيعة الاجتماعية للّسان الموجود في كتاب "ميبه" يتضمّن تقارُب المُقاربتين الدّاخلية والخارجية والتّزامُنية والتّعاقُبية للأحداث اللُّغوية على حدّ سواء.

عندما قابل "دي سوسير" بين اللّسانيات الدّاخلية والخارجية، عمل "ميبه" على ربطهما، وعندما عمل "دي سوسير" على التّفريق بين التّزامُن والتّعاقُب، بحث "ميبه" على تفسير للبنية (la structure) بواسطة التّاريخ.

إن الرّجُلين يختلفان في كل شيء عند وضعهما في مجال اللّسانيات العامّة، فعند مُحاولة "دي سوسير" البحث عن نمُوذج تجريدي للُّسان، جمع "ميبه" بين الحدث الاجتماعي والنّظام حيث يرتبط الكل بعضُه ببعض. فلا نستطيع فهم الأحداث اللُّغوية بالنّسبة لـــــــــــــــــ"ميبه" دون العودة إلى الجانب الاجتماعي، وبالتّالي العودة إلى التّعاقُبية أي التّاريخ.

ومُقابل الدّقّة الّتي يُعرّف بها "ميبه" مفهوم الحدث الاجتماعي، يُقرّر "دي سوسير" أن اللّسان هو الجُزء الاجتماعي من اللُّغة[10]، أو أنّ اللّسان مُؤسّسة اجتماعية ، وفي كلتا عبارتي "دي سوسير" نوع غير خاف من الغُموض النّظري، وذلك لأنّ كون اللّسان – في نظره– مُؤسّسة اجتماعية هو ببساطة مبدأ عام أو نوع من التّوجيه الّذي سيعمل به بنيويُّون كثر بعده دون إمدادنا بوسائل الكشف العلمية لتقبُّل ذلك. فكيف لنا أن نطرح الخاصية الاجتماعية للّسان، ونمضي إلى أمر مُخالف :أي إلى لسانيات شكلية(une linguistique formelle) : "إلى لسان منظورا إليه في ذاته ولذاته". إن الأمر يختلف بالنسبة إلى "ميبه" فهذا التّأكيد يستلزم مضامين منهجية تحتل صميم النّظرية اللّسانية وُجوبا، إذ اللّسان بالنّسبة إليه (نقصد "ميبه") حدث اجتماعي ونظام أين يرتبط الكل بعضُه ببعض

في الآن ذاته. [11]ولقد حاول ما وسعه ذلك أن يأخُذ هذا التّحديد المُزدوج بعين الاعتبار. وسيكون ذلك سهلا تماما عندما يدرس المُعجم الّذي سواء أعالج أسماء الإنسان أو الديانة الهندوأوروبية ، أو عندما ينكب على دراسة انتشار الألسن (كتاريخ اللّسان اللاّتيني مثلا.) وسوف يكون الأمر أكثر صُعُوبة بالطّبع في مجالي الفونولوجيا وعلم التّراكيب، ولكن إلحاحُه الدّائم على هذه النّقاط سيجعلُه من المُؤسّسين الأوائل للسُّوسيولسانيات، وإنّنا لمُلفون في عبارة : "لمّا كان اللّسان حدثا اجتماعيا، فسينتج عن ذلك أنّ اللّسانيات علم اجتماعي، وأن العُنصرُ الوحيد الّذي يُمكننا اللُّجوء إليه لإدراك التّغيُّر اللّساني هو التّغيُّر الاجتماعي" [12]معنى قريبا جدّا من المعنى الّذي سنجده في دراسة "وليام لا بوف" (William Labov).

إذا كان كل من "دي سوسير" و "ميه" يستعملان المُعادلة نفسها، فإنّهُما لا يُعطيانها المعنى نفسه. فالمُجتمع هو الّذي أعدّ اللّسان في اعتقاد "دي سوسير"، ولذلك فهو يُعتبر اجتماعيا من هذه النّاحية فقط، أمّا بالنسبة إلى "ميه" فإنّ مفهوم الحدث الاجتماعي أكثر دقّة – كما رأينا– وأقرب إلى فكرة "دوركهايم" « Émile Durkheim » [13] (فقد أسهم بانتظام في دورية "السّنة الاجتماعية" (L'Année sociologique) الّتي كان "دوركهايم " يُشرف عليها[14]. والواقع أن "ميه" كان يربط بين النّظام والتّاريخ حيث كان "دي سوسير" يُفرّق بعناية بينهُما. إن عمل "دي سوسير" كان في الأساس عملا مبنيا على المُصطلحات (كان يسعى إلى وضع مُصطلحات للّسانيات من أجل استقرارها نظريا كعلم)، أمّا "ميه" فقد سعى إلى برنامج مافتئ يسمُه بالطّابع الاجتماعي للّسان.

يُعدُّ موضوع اللّسان بوصفه حدثا اجتماعيا أمرا غاية في الأهميّة بالنّسبة إلى "ميه" ، ممّا يجعلُه يُخالف المذهب السُّوسيري بعُمق بشكل لا واع قبل نشر "الدُّروس" طبعا، ولكن بعد النّشر أضحى أمرا واعيا، ثم إنّ تاريخ اللّسانيات البنيوية بعد "دي سوسير" اتسم بالابتعاد عن التّصوُّر السُّوسيري. وهكذا فقد ظهر خطاب يُلح على الوظائف الاجتماعية منذ ميلاد اللّسانيات المُعاصرة مُواجها لخطاب ذي طابع بنيوي مُصر على شكل اللّسان، وقد تطوّر هذان الخطابان خلال نصف قرن من الزّمان بشكل متواز دون أن يلتقيا.

II – "برنشتاين" والعُيُوب اللُّغوية: بدأت السُّوسيولسانيات المُعاصرة في الظُّهور

انطلاقا من دراسة "برنشتاين" في البُحُوث الّتي نُشرت بالإنجليزية، فقد كان "بازيل برنشتاين" (Basil Bernstein) باحثا إنجليزيا مُتخصّصا في سوسيولوجيا التّربية، وهو أوّل من درس التّعابير الإنشائية الواقعية (وقلّما كان الكُتّاب يستلهمون من الماركسية) في علاقتها بالوضعية الاجتماعية للمُتكلّمين. وقد انطلق من مُلاحظة أن أطفال الطبقة العاملة يُمثّلُون مُعدّل فشل مدرسي أكبر بكثير من أطفال الطّبقة الرّاقية (الغنية أوالمُستقرّة ماديا). توصّل هذا الباحث بعد تحليل التّعابير اللُّغوية لأطفال كلتا الطّبقتين إلى تحديد لسانين: أحدهُما محدود، وهو الوحيد الّذي يُتقنُه أطفال الوسط المحروم، ولسان أكثر تطوُّرا يُتقنُه أطفال الطّبقة الغنية بالإضافة إلى إتقان هؤُلاء اللّسان المحدود، وكان التّعبير يدور حول وصف الأطفال مجموعة من الرُّسوم الصّامتة.[15]

راح أطفال الطّبقة المحرومة يشكّلون نصّا خاليا من المعنى إلاّ قليلا دون الاعتماد على العلاقة بين صور الحامل المُعطى (الرُّسوم المُقدّمة لهم) : "يلعبون الكُرة، يقذفون الكرة، كُسر الزُّجاج..." بينما قدّم أطفال الطبقة الغنية نصّا مُتكاملا: "أطفال يلعبون الكُرة، قذف أحدهم الكُرة فأصاب زجاج النّافذة فانكسر....". يختلف النصّان في الكثير من النّقاط من بينها الصّيغ النّحوية، حيث يتّصف اللّسان المحدود بجُمل قصيرة ومُفكّكة، مع مفردات محدودة، وبذلك يكون أصحابُه يُعانون إعاقة في تعلُّمهم وفي نظرتهم للعالم. اهتم "برنشتاين" بالقضايا المنطقية والدّلالية بشكل أساسي، وهو أمر يتكرّر ويتّضح باستمرار في أعماله. تقُوم فرضيّتُه الأساسية على أنّ التّعلُّم والتّنشئة الاجتماعية يتأثّران بالعائلة الّتي تربّى الأطفال فيها، وأن السُّلوك اللُّغوي تُحدّده عوامل مُختلفة رُبّما كان أهمُّها البنية الاجتماعية، وهو متأثّر جدّا بـــــــ"دوركهايم" من وجهة النّظر الاجتماعية، ويُشير إلى ذلك بوُضوح في قوله: [إن مفاهيم اللّسان المحدود واللّسان المُتطوّر يعُودان في أُصُولهما إلى شكلي التّضامُن الّذي ميّز بينهُما "دوركهايم" .] وقد قُوبلت أعمالُه المنشُورة (الّتي كانت عبارة عن مقالات في الغالب) بإيجابية، لأنّها كانت أولى الأعمال الّتي تشمل مُحاولة لوصف الاختلاف اللّساني القائم على الاختلاف الاجتماعي. ولكن تلك المُقابلة الثُّنائية بين اللّسانين آلت شيئا فشيئا إلى رفضها (أليس ذلك عبارة عن مراحل مُتّصلة يتواصلُ من خلالها العبور من مُستوى إلى آخر؟). وزاد عن ذلك الرّفض الضّعف الّذي مسّ المفاهيم اللّسانية لديه.

إن تطوُّر تلك الانتقادات الّتي وُجّهت إلى "برنشتاين" كانت قد غذّتها الأعمال الّتي قام بها "وليام لابوف"(William Labov) الّتي خصّت لُغة الزُّنوج الأمريكان، فقد نبّه "لابوف" إلى أنّ "برنشتاين" لم يصف لغات أولئك الأطفال في الواقع، بل أساليبهم[16]. وهو إلى جانب ذلك لم يكُن صاحب نظرية وصفية: "فعندما نُريد حقّا وصف ما يُفرّق بين مُتكلّمي الطّبقة المُتوسّطة ومُتكلّمي الطّبقة العاملة، يجب علينا التّركيز على وحدات من قبيل: "اعتقد"، "اسم المفعول" و"المبني للمجهول" و"الرّوابط" و"الأفعال المُساعدة" و"الضّمير أنا" و"الكلمات النّادرة" وغيرها. ولقد حاول "برنشتاين" الردّ على تلك الانتقادات ، ولكن رُدُوده لم تلق آذانا صاغية من قبل اللّغويين، ولم يعُد ذلك مرجعا للباحثين إلاّ قليلا. وعلى الرُّغم من ذلك يبقى "برنشتاين" مُمثّلا لمُنعرج في تاريخ السُّوسيولسانيات لكونه المُحفّز والمُسرّع لذلك التّطوُّر البطيء نحو المفهوم الاجتماعي للّسان، وأن رفض اللّغويين لفرضياته بعد ذلك لا يعني حجب الدّور الّذي قام به.

III – مُحاولة التّوحيد لدى "وليام برايت" (William Bright) : اجتمع بين الحادي عشر والثّالث عشر ماي من عام 1964 في "لوس أنجلس" بالولايات المُتّحدة خمسة وعشرون باحثا بمُبادرة من "وليام برايت" لأجل مُحاضرة حول السُّوسيولسانيات، كان من بينهم ثمانية من الجامعة الّتي نظّمت المُحاضرة، وخمسة عشر أمريكيون، بينما كان الباحثان الباقيان من خارج الولايات المُتّحدة (من يوغسلافيا) (la Yougoslavie) وكانا في الجامعة المُنظّمة بصفة مُؤقّتة. قدّم ثلاثة عشر منهم مداخلات هم:

1- Henry Hoenigswald
2- John Gumperz
3- Einar Haugen
4- Raven McDavid Jr
5- William Labov
6- Dell Hymes
7- John Fisher
8- William Samarin
9- Paul Friedrich
10- Andrée Sjoberg

11- Jose Pedro Rona
12- Gerald Kelley
13- Charles Ferguson

وقد نُوقشت مواضيع مُختلفة مثل إثنولوجيا التّغيُّر اللّساني (Gumperz) والتّخطيط اللّساني(Haugen)، والتّصحيح المُفرط باعتباره عاملا من عوامل التّغيُّر (Labov)، والألسنة النّاقلة (Samarin, Kelley)، تطوُّر أنظمة الكتابة (Sjoberg) ، مُعادلة المواقف السُّوسيولسانية للولايات (la mise en équation des situations sociolinguistiques des États) (Ferguson) وغيرها. ولم تكُن الخلفيات النّظرية لتتخلّف، فلقد حاول "وليام برايت" الّذي ضمن نشر المُداخلات توحيد مُختلف المُساهمات في مُقدّمته. فأشار بداية إلى أنّه ليس من السّهل تعريف السُّوسيولسانيات بدقّة، مُضيفا أنّ دراساته ترتبط بالعلاقات بين اللّغة والمُجتمع، ولكن تعريفا يُساق على شاكلة كتلك من شأنه أن يكون مُلتبساً. كما ركّز على أنّ إحدى المُهمّات الرّئيسية للسُّوسيولسانيات هي إثبات أن الاختلاف أو التّنوُّع ليس حُرّا بل يرتبط بالاختلافات الاجتماعية المنتظمة. ويقترح – بناء على ذلك– إعداد قائمة بـــــــ"أبعاد" السُّوسيولسانيات، مع افتراض أنّه في كل تقاطع لاثنين أو أكثر من تلك الأبعاد يُوجد موضوع سوسيولساني للدّراسة.

تظهر الأبعاد الثّلاثة الأولى من خلال الإجابة عن التّساؤل التّالي: ما العوامل الّتي يكون التّنوُّع اللُّغوي مشروطا بها؟ وهي ثلاث: الهُوية الاجتماعية للمُتكلّم والهُوية الاجتماعية للسّامع والسّياق، وبذلك نكون قد تموقعنا في إطار تحليل لساني يقترض مفاهيمه المفتاحية من نظرية التّواصُل :(باث ومتلقّ وسياق.) أمّا الأبعاد الأربعة الآتية فهي بالنّسبة إليه: التّقابل التّزامني/التّعاقُبي، الاستعمالات اللّسانية والاعتقادات الخاصّة بهذه الاستعمالات، مدى التّنوُّع، مع ترتيب ثُلاثي: اختلاف مُتعدّد اللّهجات، مُتعدّد الألسنة أو مُتعدّد المُجتمعات.

تتم تطبيقات السُّوسيولسانيات بترتيب ثلاثي مرّة أُخرى: السُّوسيولسانيات باعتبارها تشخيصا للبُنى الاجتماعية وباعتبارها عاملا سوسيوتاريخيا وباعتبارها مُساعدا للتّخطيط، ويختم قائلا: " يبدو

مُحتملا أنّ السُّوسيولسانيات تدخل عصر تطوُّر سريع، ويُمكننا أن نأمل أنّ اللّسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ستستشعر آثار ذلك."[17]

يحمل هذا النّص في وقتنا الحاضر قيمة تاريخية، فقد كان إلقاؤه شهر ماي 1964 شهادة ميلاد للسُّوسيولسانيات باعتبارها ندّا لطريقة لسانية أخرى تمثّلت في النّحو التّوليدي لـــــ"تشومسكي".

ولكن "برايت" لا يستطيع تصوُّر السُّوسيولسانيات إلا كمُقاربة مُلحقة بالأفعال اللُّغوية، جاءت مكمّلة للّسانيات أو لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا . إنّ ذلك الإلحاق هو الّذي سيتلاشى مع "لابوف".

IV- "لابوف": السُّوسيولسانيات وإعادة التّعريف: لقد رأينا أنّ "ميبه" خالف منذ وقت مبكّر التّصوُّر اللّساني الّذي اقترحه "دي سوسير". ولذلك لم يُخطئ "لابوف" عندما حلّل على الشكل التّالي ما جاء به "ميبه" ومدى محدودية اللّسانيات السُّوسيرية: [رأى"ميبه" المُعاصر لـــــ"سوسير" أن القرن العشرين سيرى تطوُّرا لإجراء تفسير تاريخي مُؤسّس على التّغيُّرات اللّسانية باعتبارها تندرج ضمن التّحوُّلات الاجتماعية.]

ولكّن أتباع "دي سوسير" ، مثل "مارتنيه"(André Martinet) مصرُّون على رفض هذا التّصوُّر ، ويؤكّدون دون كلل على أن يقف التّفسير اللّساني عند حُدود العلاقات المُتبادلة بين العوامل البنيوية الدّاخلية. وهم بذلك لا يقومون إلاّ بتتبُّع روح الدّرس "السُّوسيري"، والواقع أن تتبُّعا عميقا لكتابات "سوسير" تُبيّن أنّ مُصطلح "اجتماعي" يعني عنده "تعدُّدية فردية" لا أكثر، ولا يعني التّفاعُل الاجتماعي تحت عوامل أكثر امتدادا.

بعد أن قام "لابوف" بتقديم أمثلة فونولوجية في تأثير الزُّنوج على لُغة "نيويورك"

(Le Parler de New York) يعُود في الخاتمة إلى "ميبه" قائلا: "أمثلة كتلك تعطي ثقلا لتأكيد "ميبه" على وُجوب البحث عن تفسير لعدم اطّراد التّغيُّرات اللّسانية في تقلُّبات التّشكيلة الاجتماعية في الجماعة اللّسانية. " عندما نشر "لابوف" دراسته حول / r/ في المحلاّت الكُبرى في

نيويورك، كان ذلك بمثابة بيان يُمكّننا من القول إنّ أفكار "مييه" قد استُؤنفت من جديد. وسنجد الفكرة نفسها انطلاقا من الفصل الثّامن من كتاب "السُّوسيولسانيات" : دراسة اللّسان في سياقه الاجتماعي، حيث يظهر الرّابط الّذي يجمع "لابوف" و"مييه" بوُضوح ، يقول "لابوف": " إن هدفنا هو بنية تطوُّر اللُّغة في صُلب السيّاق الاجتماعي المُشكَّل من قبل الجماعة اللّسانية." يتم النّظر في الموضوعات الّتي تندرج عادة ضمن اللّسانيات العامّة : الفونولوجيا والمورفولوجيا والتّركيب والدّلالة ، وإذا كان تحديد التّبايُن بين هذا العمل ودراسة اللُّغة خارج السّياق الاجتماعي ليس ضروريا، فذلك يعني اللّسانيات ببساطة."[18] وقد اعتبر "هنري بوير" (Henri Boyer) في كتاب تقديم السُّوسيولسانيات (présentation de la sociolinguistique) هذا الكلام مُثيرا للجدل. وليس للجدل مكان هُنا، ولكن الكلام يدُور حول تأكيد لمبدأ فقط ، إذ لا مجال للتّفريق بين اللّسانيات العامّة الّذي تدرس الألسن و السوسيولسانيات الّتي تأخذ الجانب الاجتماعي من تلك الألسن بعين الاعتبار، وبمعنى آخر فالسُّوسيولسانيات هي اللّسانيات. يُشدّد "لابوف" على فكرة "مييه" من خلال اعتبار اللّسان حدثا اجتماعيا بشكل جدّي، وتلك نُقطة تتوقّف عندها المُقارنة بين الباحثين. فـــــــ"مييه" لساني مُقارن من الصّفوة عمل غالبا على الألسن الميّتة ، أمّا "لابوف" فقد عمل على المواقف الواقعية الحالية باستمرار، ولذلك فهو يطرح قضايا منهجية تخُصُّ التّحقيق، فهو باختصار يبني أداة للوصف تُحاول عند العمل بها تجاوز الطّرائق الاستدلالية للّسانيات البنيوية، وقد أدّت بُحُوثه إلى ميلاد تيار يُعرف باسم "لسانيات التّنوُّع" « linguistique variationniste ». لقد شكّلت السّبعينيات منعرجا في تاريخ السُّوسيولسانيات ، إذ بدأت منذ ذلك الحين بعض الدّوريات في الظُّهور وكذا مُختارات لمقالات تُحيل على السُّوسيولسانيات صراحة ، وأخذت تحظى بالاهتمام شيئا فشيئا حتّى بلغت درجة تغلُّبها على مواقف اعتُبرت نهائية. ففي سنة 1972 نشر "بيير باولو جيجليولي" (Pier Paolo Giglioli) اللُّغة والسّياق الاجتماعي الّذي نجد فيه أسماء: (Joshua Fishman) و(Erving Goffman) و(Basil Bernstein) و(William Labov) و(John Gumperz) و(Charles Ferguson). كما تمّ نشر كل النُّصُوص الّتي اختيرت من قبل بين سنتي 1963 و 1971 بشكل مُنعزل، وأصبح هذا الجمع بعد عمل "برايت" مُشيرا إلى تيار لساني جديد.كما جمع "ج. ب. برايد"(J. B. Pride) و "جنت هولمز"(Janet Holmes) مقالات

مُختارة نجد بين طيّاتها أسماء (Joshua Fishman) و (Einar Haugen) و(Charles Ferguson) و (William Labov) و(John Gumperz) وغيرهم.

ظهر بعد ذلك بعامين كتاب صغير لصاحبه "بيتر ترادجيل" (Peter Trudgill) بعُنوان "مقدّمة في السُّوسيولسانيات" الّذي يُعتبر نُقطة عملية لوضعية السُّوسيولسانيات لكونه يُمدُّنا بأمثلة كثيرة وتحقيقات واقعية. وقد طُبع في فرنسا في السّنة نفسها كتاب "السُّوسيولسانيات" الّذي يختصر النّظريات بشكل أساسي ويُعطي للمُقاربة الماركسية حصّة الأسد في الدّراسة.

أمّا من حيث الدّوريات ، فقد ظهرت دورية "اللُّغة والمُجتمع" (Language in Society) سنة 1972، وبعدها "المجلّة الدّولية لمُجتمع اللُّغة" (International Journal of The Sociology of Language) سنة 1974.

يعتبر هذا النّشاط مُؤشّرا على تغيير لا يُمكن دحضُه إنّه " الكفاح من أجل تصوُّر اجتماعي للُّغة" الّذي أضحى ناجحا في سبعينيات القرن الماضي، وواصل نجاحه بعد ذلك.

الهوامش:

[1] **Ferdinand de Saussure**, Cours de linguistique générale, Arbre d'or, 2005.

[2] **Henri Boyer**, Introduction à la sociolinguistique Paris, Dunod, 2017,

[3] **Laffont**, L'à-dire et le temps du silence : pour une linguistique de la parole productrice, Cahiers de praximatique, 1983.p.11

[4] Voir, **Henri Boyer**, op.cité,

[5] **Jean Dubois et Autres,** Grand Dictionnaire linguistique & sciences du langage, Larousse, 2007.p.435.

[6] **Michael Halliday** 1972. 'National Language and Language Planning in a Multilingual Society'. *East African Journal*. 9. (manuscrit 28pp.).

[7] **Jean-Baptiste Marcellesi**, « Sociolinguistique française, combien d'années ? », Cahiers de sociolinguistique, 2003/1 (n° 8), p. 273-278. DOI : 10.3917/csl.0301.0273. URL : https://www.cairn.info/revue-cahiers-de-sociolinguistique-2003-1-page-273.htm

[8] **Antoine Meillet**, « Comment les mots changent de sens », réédition de 1965.

[9] **Ferdinand de Saussure**, Cours de linguistique générale, Arbre d'or, 2005.p.317

[10] Ibid., p.31

[11] **Christian Puech, Anne Radzynski**, Fait social et fait linguistique : A. Meillet et F. de Saussure in histoire, Épistémologie, langage, tome 10, Fascicule 2, 1988, Antoine Meillet et la linguistique de son temps, PP. 75-84. Persée.

[12] **Antoine Meillet,** « L'état actuel des études de linguistiques générales », leçon inaugurale au Collège de France, 13 février 1906 ; repris dans Linguistique historique et linguistique générale Paris, Champion, 1921 ; cité ici dans la réédition de 1965, p. 17.

[13] **Emil Durkheim**, Les règles de la méthode sociologique, Paris, Félix Alcan, coll. Bibliothèque de la philosophie contemporaine, 1895.

[14] هي مجلّة في علم الاجتماع، ظهرت سنة 1898 بفرنسا كان "إميل دوركهايم" مُشرفا عليها.

[15] **Basil Bernstein**, Class, codes and control, London, Routledge & Kegan Paul, 1971.

[16] **William Labov**, *the Social Stratification of English in New York City Department Stores,* Washington, D.C., Center for Applied Linguistics, 1966.

[17] **Calvet Louis-Jean**. Aux origines de la sociolinguistique la conférence de sociolinguistique de l'UCLA (1964). In: Langage et société, n°88, 1999. pp. 25-57; doi : https://doi.org/10.3406/lsoc.1999.2867 https://www.persee.fr/doc/lsoc_0181-4095_1999_num_88_1_2867.

[18] **Jean Louis Calvet**, La sociolinguistique, Que sais-je ? 8° édition, PUF. Version électronique.

المراجع:

Antoine Meillet, « L'état actuel des études de linguistiques générales », leçon inaugurale au Collège de France, 13 février 1906 ; réédition de 1965
Voir, Antoine Meillet, « Comment les mots changent de sens », réédition de 1965.

Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Arbre d'or, 2005.

Henri Boyer, Introduction à la sociolinguistique Paris, Dunod, 2017.

Laffont, L'à-dire et le temps du silence : pour une linguistique de la parole productrice, Cahiers de praximatique, 1983.

Jean Dubois et Autres, Grand Dictionnaire linguistique & sciences du langage, Larousse, 2007.

Michael Halliday 1972. 'National Language and Language Planning in a Multilingual Society'. *East African Journal*. 9. (manuscript 28pp.).

Jean-Baptiste Marcellesi, « Sociolinguistique française, combien d'années ? », Cahiers de sociolinguistique, 2003/1 (n° 8), p. 273-278. DOI : 10.3917/csl.0301.0273. URL : https://www.cairn.info/revue-cahiers-de-sociolinguistique-2003-1-page-273.htm

Christian Puech, Anne Radzynski, Fait social et fait linguistique : A. Meillet et F. de Saussure in histoire, Épistémologie, langage, tome 10, Fascicule 2, 1988, Antoine Meillet et la linguistique de son temps, PP. 75-84. Persée.

Emil Durkheim, Les règles de la méthode sociologique, Paris, Félix Alcan, coll. Bibliothèque de la philosophie contemporaine, 1895.

Basil Bernstein, Class, codes and control, London, Routledge & Kegan Paul, 1971.

William Labov, *the Social Stratification of English in New York City Department Stores,* Washington, D.C., Center for Applied Linguistics, 1966.

Jean Louis Calvet, La sociolinguistique, Que sais-je ? 8° édition, PUF. Version électronique.

Calvet Louis-Jean. Aux origines de la sociolinguistique la conférence de sociolinguistique de l'UCLA (1964). In: Langage et société, n°88, 1999. pp. 25-57; doi : https://doi.org/10.3406/lsoc.1999.2867
https://www.persee.fr/doc/lsoc_0181-4095_1999_num_88_1_2867.